استعراض على اجتهاد محمد أبى القاسم حاج حمد في أحكام الأسرة

أسموني محمد طاهر

Departement of Islamic Law, Islamic University of Indonesia
E-mail : asmuni_uii@yahoo.com

عنوان الكتاب	: تشريعات العائلة في الإسلام
المؤلف	: محمد أبو القاسم حاج حمد
تقديم وتعليق	: محمد العاني
الناشر	: دار الساقي بيروت-لندن سنة ٢٠١١
عدد الصفحة	: ٢٥٦ صفحة تقريبا

إن الموقف من المرأة في العالم الإسلامي عموما مازال محكوما بجملة من القضايا والأمور التي ظلت حبيسة منهج تفسيري محافظ ترسخ على مدى قرون بفعل اختلاط الفكر الديني بالموروثات الشعبية والعادات الاجتماعية والتقاليد، وهو ما أفضى إلى نوع من الارتباك في فهم النصوص، كما أن هيمنة الحركات الإسلامية باتجاهاتها الفكرية المختلفة ورؤاها الاجتهادية المتباينة قد أثرت على الوعي المجتمعي الإسلامي ، ما جعل أطروحاتها أرضية خصبة لجدل كبير في المجتمعات الإسلامية . وفي هذا السياق ظهرت العديد من الدعوات التحررية المناصرة لقضية المرأة منذ العقود الأولى من القرن الماضي مع كتابات قاسم أمين وجمال الدين الأفغاني ومحمد عبده وعبد الرحمن الكواكبي والطاهر الحداد ومحمد بن الحسن الحجوي. [1] وفي نهاية القرن الماضي ومع بداية الألفية الثالثة ظهر أيضا كتاب 'تشريعات العائلة في الإسلام' لمؤلفه محمد أبو القاسم حاج حمد أحد المفكرين الذي له نظرة فريدة لتراث الإسلام الفلسفي والأخلاقي والروحي والتشريعي والعائلي، من خلال اهتمامه بتوضيح الضوابط الإسلامية للتغيير البنيوي في المجتمع، والذي يعد قوام ثقافة المجتمع التي

[1] ذوات ، مجلة ثقافية إلكترونية نصف شهرية تصدر عن مؤسسة "مؤمنون بلا حدود للدراسات والأبحاث" العدد ٩ -٢٠١٥. أنظر: كلمة هذا العدد لـ سعيدة شريفة ص ٤.

تتكون في إطارها الحضارة التي توفر الشروط والضمانات الضرورية لأفراد ذلك المجتمع وأسره. يتناول الكتاب مسائل حسّاسة لكنها ملحة، من بينها الحجاب والاختلاط وتعدد الزوجات والتبنيّ وزواج القاصر، ويطرحها بكيفية مختلفة عن منطق التفسير التقليدي، منتقداً في الوقت ذاته الفلسفات الوضعية والمادية التي فككت الضوابط الأخلاقية وحاولت شرعنة الجنسائية.

استهل الكاتب أطروحاته بادئا بالنظر في النهج الروحي الذي يجب على المسلم أن يسلكه في حياته، ففي ذلك تتجلى كمالات النفس الإنسانية من خلال اتصالها بروحية الإسلام مستدلا بذلك (بآية سورة الأعراف: ٢٨). كما يشير إلى مظاهر تلك الضوابط وشرعة التخفيف. كما يشرح الأسباب التي حرّمت الزنى وما يتصل به وما ينتج منه، قائلاً إن اللّه أخذ الذرية من الظهور وأنه تعالى حذر من خيانة الأمانة، وهو في نظره إنذار إلهي يجب الاتعاظ به[2] ، فاللّه شرّع للكون بشرعة الصلاح لا بشرعة الفساد «وما خلقنا السموات والأرض وما بينهما لاعبين» («الدخان»: ٣٨). كما يشير حاج حمد إلى حديث القرآن عن جانب خاص من الحياة الأسرية للأنبياء وعن جعل الزواج من امرأة واحدة هو الأصل في الإسلام [3].

وفي أخلاق العائلة الروحية، يبدأ المؤلف بالحديث عن العقاب الإلهي وضرورة الترقي لدى الإنسان. كذلك يتحدث عن الضوابط العامة الأخلاقية للعائلة، مثل ضرورة غض البصر وحفظ الشهوة وإخفاء الزينة وضرب الخمار على الجيوب، من دون أن ينسى الحديث عن إشكاليات التزمت العرفي مع صحيح القرآن في مسائل الحجاب والتبرج والخضوع بالقول والاختلاط بين الذكر والأنثى ومحرمات الزواج، مبيناً أن الدعوة الإسلامية هي خاتم الأديان، وأنها هي الأخف شرعة بينها.

لا يخطئ القارئ الحصيف للكتاب الذي قدمه وعلق عليه محمد العاني الرؤية الجديدة التي يطرحها المفكر الإسلامي حاج حمد من خلال تعامله مع القيم التاريخية للإسلام الحضاري والاجتماعي، ومع الأصالة التحديثية العريقة التي أودعها الإسلام ضمير العالم الإسلامي المتفقه والمجدد عبر العصور المتعاقبة. يتأسس كتاب حاج حمد على مداخل تبحث في بعض إشكاليات الاجتهاد والتجديد، فينظر في مصادر الإضلال والتزييف والدس من خلال الموضوعات الشائكة التي خاض فيها كثير من علماء المسلمين قبله مثل مسألة النظر في إبليس وخصائصه، أو في دور اليهود في الدس والتزييف، أو ارتدادات الغفلة والسهو في البحث

[2] أنظر محمد أبو القاسم حاج حمد، تشريعات العائلة في الإسلام، بيروت- لندن : دار الساقي ، ٢٠١١، ص ١٨٣.

[3] حاج حمد ، تشريعات ... ص، ١٦٩.

والتدليل والتعليل، وفي دور الاجتهاد في قراءة الأصل قراءة متأنية لأجل حفظ الأمانة لا لإسقاطها! ولهذا كله، نراه يعول على دور الاسترجاع النقدي القرآني، متسائلاً عما إذا كان القرآن الكريم كتاباً مدرسياً أو كتاباً إلهياً،[4] آخذاً على العلماء الاستغراق في علم الأصول وعلم الصيغ وعلم حدود الألفاظ أكثر من تبيان وجوه الدين الإسلامي الفكري الحنيف، ورد التفاصيل الكثيرة إلى جوهر واحد. «قل لو كان البحر مداداً لكلمات ربي، لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربي ولو جئنا بمثله مدداً» (الكهف: ١٠٩)

يبحث حاج حمد أولاً بأول في العائلة الأولى، متحدثاً عن سلطان الأسماء بحكم الروح، وعن العائلة الآدمية قبل الهبوط من الجنة. ثم لا يلبث أن يناقش بعد ذلك مسألة العائلة الآدمية والهبوط إلى الأرض: مثل سر الهبوط ومعنى الجنة والقسم الأول الكاذب على اللّه والريش ولباس التقوى. ثم نراه يعطف ذلك على العبادات الحسية والمتغيرات الطبيعية، إذ يرى أن العبودية ليست استرقاقاً أو أن جوهر الخلق ليس هو الشقاء بعينه كما يذهب إلى ذلك كثير من المتفقهين. وفي بحث مميز، يعالج حاج حمد مسألة الأخلاق وفلسفة العلوم الطبيعية، شارحاً خطأ الاستدلال الذي وقع فيه بعض علماء المسلمين، ومبيناً كيفية طرح القرآن الكريم للمسائل الخلقية والطبيعية المعقدة، متوقفاً عند انحراف فلسفة العلوم الطبيعية عن حدود الأنساق الفلسفية الأصيلة. «فهذه أزمة اللاهوت الأرضي الذي لم تر ماديته إلاّ نصف الحقيقة في المادة نفسها».[5] كما أفرد حاج حمد فصلاً خاصاً بعنوان «المقام المحمدي»، لإلقاء الضوء على حياة الرسول الكريم وما اتصل بها من أقوال ومشاعر وصفات.

يبدو حاج حمد في دور الفقيه والمجدد داعيا إلى بعث هذه القيم في إطار نهضة حقيقية، ترتكز في أساسها على ما ارتكزت عليه الدعوة، بل الثورة الإسلامية في عهد النبوة. ولهذا نراه يربط بين معطيات السنن الإلهية في تطوير المجتمعات وتحديثها وتغييرها، وبين نجاحها الفعلي في كل أمة اتخذت هذه السنن في مواجهة مستقبلها، مهما كان اتجاهها الفكري أو المذهبي. إذ إن هذا الربط بين التشريعات العائلية الإسلامية الأصيلة والرؤية المجددة لقراءتها لأجل التطوير والتحديث على صعيد المجتمع، إنما هو تأكيد للقاعدة التي هي سنّة اللّه لا تبديل لها.[6] فالله «لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم». أما تغيير ما بالنفس،

---

[4] حاج حمد ، تشريعات ... ص ، ٣٥.

[5] حاج حمد ، تشريعات ... ص ، ١٣١.

[6] قصي الحسين ، أبو القاسم حاج حمد وتشريعات الأسرة في الإسلام ، مجلة الحياة (al-hayat.com,articles) تحميل تاريخ ٦ من سبتمبر ٢٠١٥.

إنما هو تغيير ما بالفكر من رؤية للأمور، وتغيير ما بالروح من رتابة وجمود. ولهذا ربما نجد في صوت المرحوم حاج حمد وفي فصول كتابه هذا، وفي كثير من أبحاثه ومقالاته الإسلامية الكثيرة الأخرى، صوتاً عالياً وأحياناً منفعلاً، وهو يرى غفلة الأبصار عن حقيقة الدعوات المأزومة والمهزومة والتي تنال من كرامة المجتمع الإسلامي ومن كرامة أسره الكريمة التي تئن تحت وطأتها. وهذا ما يساهم في ضياع ما كان للإسلام من صدمة إيجابية في أول عهده على صعيد المجتمعات العربية والإنسانية، ومن أمل في بعث الرؤية الجديدة لمستقبل الأمة والاسلامية، وتحويلها إلى قيمة بنيانية ذات بعد إنساني وعالمي.

يقدم حاج حمد قراءة جديدة لما سمّاه «الأخلاقيات التوجيهية» في سورة «النور»؛ حيث تحدث عن زواج القاصر وعن التشريعات العائلية في هذه السورة الكريمة. وكذلك عما سمّاه «الفضائح من خطوات الشيطان»، مؤكداً ضرورة الاستشعار بحرمة البيت لأجل بناء أسرة كريمة، متوقفاً عند الأمر بتسهيل الزواج،[7] وعن متاحات التداخل العائلي من جهة وبناء بيوت الرحمة للعجزة والأيتام من جهة أخرى. وقد خلص إلى نتائج هامة في بحثه: إن القصد إنما هو النفس ونورها الداخلي، إذ المطلوب صفاء النفس وخلاصها حتى لا يقع المسلم في الإيمان ونقيضه.[8] والله يريد للإنسان أن يراه حراً بطاقة السمع والبصر والفؤاد، متسامياً فوق البهيمية ليستخلفه في الكون، حيث يكون له الخلود ويكون له المجد، إذا ما حافظ على عدم السقوط في الدناءات. وفي هذا السياق يطرح حاج حمد وجهات نظر مثيرة للجدال تخص ابن الزنا، فهو في رأيه كالبهيمة بلا روح ولا أمل في صلاحه. وبتبنيه طريق تحليل آيات القرآن وربطها ببعضها يستنتج أن ابن الزنا لا توهب له الروح، فغالبا ما تكون قد سلبت نعمة الروح من والديه لحظة الزنا وإن كانت الروح فيهما من قبل، فلا يزني الزاني إن كان مؤمنا بروح إلا وتكون الروح قد فارقته كما تكون قد فارقت الزاني لحظة الزنا فكيف يكون الأمر تجاه ثمرة الخطيئة. وفي الحقيقة، يثير هذا الطرح تساؤلات حول مفهوم الروح عند حاج حمد، الذي يختلف عن المفهوم السائد في الفكر الإسلامي، حيث الروح سر الحياة وليست سر الفضيلة. إن حاج حمد بوجهة نظره هذه يحكم باسم القرآن والله على الإنسان المولود بدون (بدون عقد) زواج بأنه ابن وثمرة خطئه وأنه لا روح فيه بمنتهى البساطة، بل ويذهب صاحب هذا الكتاب إلى أبعد من ذلك ويصفه - أي إبن الزنا – بالفاجر ويشبهه بالبهيمة ولتبرير رؤيته الدونية لأبناء الزنا يلحق بأرومته ابن نوح الذي شق عصا الطاعة على

[7] حاج حمد ، تشريعات ... ص ، ٢٤٨. أنظر أيضا قصي الحسين في المرجع نفسه

[8] حاج حمد ، تشريعات ... ص ، ٢٥٣.

والده كفرا بنبوته مدعما بآيات من القرآن، التي تثبت الخيانة لزوجته، وانقطاع ذرية نوح، مستخدما منهج التحليل وليس التفسير كما دعاه .

أما قضية الخمار فقال حمد : أما الخمار الذي يخلط الناس بينه وبين الحجاب فهو الثوب المسدل على جسد المرأة ووحددت المواضع بالجيوب الجسدية وهي ما بين النهدين والإبطين والصلبين والفخذين . ويرى حاج حمد أن الزينة هي معالم جسد المرأة التي تظهر بطبيعة التكوين حتى تحت الخمار ، إلا ما ظهر منها، وليست الحلي التي ينتجها الصاغة.

لقد كان الحاج حمد على وعي بخطورة المشكلات الفكرية التي تترتب عن طرح القرآن الكريم بديلاً حضاريًّا على مستوى العالم، من مثل: أن محاولات التجديد اليوم تواجه مشكلات الفرز المزدوج لعلاقة القرآن ببيئة التنزيل من ناحية، ولعلاقته بالتاريخ الخاص للشعوب الإسلامية من ناحية أخرى.

أنى يكون موقفنا من أطروحات حاج حمد، فإن تلك الأطروحات إنما تضعنا أمام حقيقة واضحة، حقيقة حاجة المجتمعات الإسلامية المعاصرة إلى نظرات جديدة يتكامل فيها النظر الشرعي والعقلي مدعومين بالبحث التاريخي والنهج الحواري؛ نظرات جديدة لا عقدة فيها، ولا كراهية لأي إنسان مهما كان وأينما كان، نظرات جديدة رحيمة وفي نفس الوقت جادة. كما تضعنا تلك الأطروحات، رغم غرابتها في أحيان كثيرة، أمام الحاجة الماسة إلى الفصل بين واقع تشريعات العائلة في الإسلام تاريخياً، وتجربة الإسلام الاجتماعية والعائلية المتوالية. كما تضعنا تلك الأطروحات أمام مطلب ملح للتفكير المعاصر في الإسلام من دون التأثر بالاستلابات اللاهوتية والوضعية لمسألة الأخلاق بشكل عام والحريات الفردية وما يترتب عليها من مسائل فلسفية وتشريعية وحقوقية. وبذلك «يصبح الإسلام من الروافد المعرفية الهامة»، كما يقول محمد العاني في مقدمته التوضيحية في هذا الموضوع .[9]

ونظرا لقوة الأطروحات المعرفية وفرادة ما جاء به من مداخل تأملية وقراءات فكرية تناولت مخزون التراث ومخزون الحداثة على حد سواء فقد أصبح مثار جدل في الاوساط الثقافية والفكرية، بين الاعجاب الشديد والنفور الشديد. فهو عند البعض مجدد بلا منازع والفيلسوف الاول في خريطة العالم الإسلامي الذي استطاع ان يجمع بين العمق الفلسفي والإشراق الصوفي والديناميكية الحركية قلما تجد هذه الثلاثية تجتمع لدى مفكر واحد كما قاله رياض حاوي.

[9] حاج حمد ، تشريعات ... ص ، ١٢.

وأخيراً مهما اتفقنا معه كليا أو جزئيا أو اختلفنا معه كليا أو جزئيا ، كما قاله رياض حاوي فإنه لا مناص من تسجيل أن الرجل ترك فراغا، لا يملؤه إلا مزيد من الجد المعرفي والفكري والثقافي في كل المستويات وتجاوز الضحالة والتسطح الغالب على متصدري الواجهات الثقافية في عالمنا اليوم. وبذلك يبقى إنتاجه ومشروعه العلمي ظاهرة تستحق الدراسة والتقييم، يستفاد من الصالح ويطرح الطالح.